ثورات البربر في العهد الروماني

- كانت الإمبراطورية الرومانية في عهدها الأعلى[1] في أوج توسعها، قد ضمت بلاد البربر بأسرها.
- وكانت في عهدها الأدنى في صراع مرير مع شعوب مستعمراتها.
- وسعى البربر للتحرر منها بثورات كثيرة؛ فطبيعة البربري البدوية عصية عن الطاعة للأجنبي.
- ومن أشهرها في العهد الأعلى ثورة تاكفرناس وفي الأدنى ثورة جلدون، ومعهما ثورات كثيرة كثورات: أيدمون (40م)، وكيبتوس (117م)، والمازيك والباكوات، وأرديون (265م)، وجوليان، وفرموس (372م) وغيرهم.

1 – ثورة تاكفرناس والمزالمة (17-24م):

- كان تاكفرناس جنديا في الجيش الروماني، ثم هرب منه وشكل جماعة من الثوار تحولت ثورة عارمة سنة 17م؛ انضمت إليها قبائل بربر المزالمة في ناحية الأوراس الجبلية.
- ثم تنتشر الثورة في الناحية السيرتية ونواحي الحضنة غربا، وتنتقل للانتشار العام ببلاد البربر كلها، بانضمام الثائر الموري "مازيبو" وقبائل الجرميين (*Garamantes*) لنواحي الفزان.
- حاولت الإمبراطورية التخلص منهم، وعينت للمهمة البروقنصل كاملوس، ثم أبرونيوس، ثم بلايسوس، ففشلوا في المهمة، لاستراتيجية تاكفرناس في الالتجاء إلى الصحراء عند الهزيمة والعودة إلى الحرب مجددا.
- ثم جاء البروقنصل دولابيلا ، فأحكم تحصين الخطوط الجنوبية للصحراء بمراكز عسكرية، وجلب دعم ملك موريطانيا بطلميوس، ثم قتل شيوخ قبائل المزالمة والجيتول، فحوصر تاكفارناس ومنع من الصحراء ودعم شيوخ القبائل، إلى أن يقع مع بقية جيشه ليلا ويقتل وتنتهي ثورته سنة 24م.
- جيشت ثورة تاكفرناس وراءها القبائل الرعوية الصحراوية والجبلية، ممن رفض سياسة الرومنة، التي دفعتها للتخلي عن أراضيها وتحويلها غصبا من البداوة إلى الزراعية، التي تجبرها على الاستقرار والخضوع للغازي وحضارته.

❖ نتائجها:

1. من أهم **نتائجها** أن حاز الملك بطلميوس البربري لدعمه في الحرب الهدايا والتحيات من السيناتو الروماني، لكن هذا لم يمنع من اغتياله بعد سنين (40م) من قبل الإمبراطور كالـڤولا.
2. كما كان من نتائجها على مستوى السياسة الرومانية ببلاد المغرب:
3. قيام الأباطرة الفلافيين بإنشاء تحصينات في الحدود الجنوبية للأقاليم البربرية
4. كما قام الأنطونيون بإنشاء مقر عسكري في حدود الليمس دائم للجيش الروماني الإفريقي.
5. البداية في تطبيق سياسة فرض استقرار القبائل الرعوية والنصف رعوية، ابتداء من عهد الفلافيين، بحصرها في محميات محددة الحدود.

[1] - يقسم العصر الإمبراطوري الروماني (27-476م) على أربعة عهود: الإمبراطوري الأعلى (27-235م)، الإمبراطوري الأدنى (284-408م)، وبينهما ما يعرف بأزمة القرن الثالث (235-284م)، وأخيرا عصر الانقسام الإمبراطوري (408-476م).

6. وبدأت بذلك تظهر حركة تحضير مدني مع استقرار هذه القبائل، وتخليها تدريجيا عن التنظيم القبلي لصالح التنظيم المدني، والذي كان جزء من سياسة الرومنة.

2 – ثورة القائد جلدون (397-398م):

- قُسمت الإمبراطورية بعد تيودسيوس على ابنيه، فحاز أحدهما الشرق والآخر الغرب.
- كان جلدون أثناءها قد أصبح سنة 385م قومس إفريقيا، إلى أن أصبح القائد العسكري للقوات الرومانية الإفريقية، وكان نفوذه كبيرا، ولم يقم الدعم للإمبراطور اثناء صراعه مع منافسيه العسكريين.
- كانت أولى خطواته في الثورة أن قام سنة 395م بمنع إمدادات القمح عن روما، وكان ذلك كافيا لاعتباره إعلان حرب.
- فيقوم ستلكون (*Stilicon*) وزير الإمبراطور بإعلانه "*Hostis publicus*"[2] أي عدوا للشعب الروماني، ولعل جلدون رد على ذلك بإعلان ولائه لإمبراطور الشرق أركاديوس.
- ويستبق غذر أخيه "مازيسال" بقتل ابنيه، فعينت روما أخاه قائدا للقوة المكلفة بحربه (سنة 398م).
- وينزل بخمسة آلاف روماني لقتال أخيه الذي كان في ستين ألفا من الرومان والبربر، لكن الفيلق الروماني لإفريقيا غير صفه قبيل المعركة وأثناء الالتحام، مما سببا خوف البربر من الخديعة والغدر، ففروا عن قائدهم جلدون، وكانت هزيمته في معكرة "أردااليو".
- ويقع جلدون أسيرا بيد أخيه، لكنه يسلم من المحاكمة بخنق نفسه في سجنه كما تذكر الرواية اللاتينية، وينتهي امر أخيه بالإغراق في بركة الوزير المذكور وبأمره.

❖ نتائجها:

1. رجوع المغرب من جديد إلى سلطان الإمبراطورية؛ واستحواذها على التركة الهائلة لجلدون.
2. ملاحقة من أعانه ، فنالت طائفة الدوناتية حملة كبرى من الاضطهاد ساهم فيها الكاثوليك.
3. سلب وطرد من البلاد كل من ظُنّ فيه الموالاة للثورة، ودامت الحملة عشر سنوات.
4. وضع المرسوم الإمبراطوري(399م) الذي يمنع ديانة تمجيد الأبطال، إعلانا لنهاية الوثنية.

❖ الحقيقة من وراء ثورة جلدون:

- اختلف المؤرخون في توصيف ثورة جلدون وصاحبها بين نزعة بربرية ثورية ونزعة رومانية تسلطية. فهل كانت استمرارا للاتجاه اليوغرطاني الثائر للتحرر من السيادة الروماني كما يدعيه عمروش وكورتوا؟ أم أنها كما يراه لوبولي ومورديران ورومانيلي لم تكن ذات صلة بأصوله البربرية؛ وأن صاحبها لم يكن لا ثوريا بربريا ولا حاكما استقلاليا رومانيا، وإنما كان يبحث عن دعم نفوذه وتكثير ثروته؛ أو أنها نزعة استقلالية لأحد قادة الرومان المتسلطين؟

- **حجج القول الأول:** احتج أصحاب القول الأول (نزعة ثورية بربرية) بعدة حجج منها:

أ – شهادة الشاعر الروماني كلوديان في نصه الأدبي "الحرب الجلدونية" حيث وصفه بالموري، ومقارنته بيوغرطان.

---

[2] - أي عدو الشعب، مصطلح ظهر في عهد الجمهورية، وكان يمنح لعدو روما الداخلي أو الخارجي. استعملها السيناتو ضد الإمبراطور نيرون، كما استعملت ضد كل من اعتنق المسيحية أثناء الاضطهاد، وكل كبار الثوار ضد السلطة الرومانية.

ب – ذكر هذا الأديب أنه فيمن ثار معه قبائل النازاموس و الجرميون والأوتولوليس، وهي بربرية بعيدة عن النفوذ الروماني.

ج – نصرة جلدون للطائفة الدوناتية المسيحية في نوميديا، وكان زعيمها أوبتات من مقربيه، علما أن الدوناتية عند بعض المؤرخين حركة مسيحية بربرية معادية لروما (ثورة دينية).

د – قيامه بقطع تمويل روما من القمح، وتحويل ذلك فيما يبدو للمغرب، وتوزيعه على البربر، في طريق اصلاحاته وترتيباته الاقتصادية الاجتماعية.

- **حجج القول الثاني:** واستدل النافون لثوريته البربرية بـ:

أ – الرواية التاريخية حول الأحداث للمؤرخ أوروزيوس التي ألفها عشرون سنة بعد الثورة، وأورد فيها روايات عمن عاصرها ولم تذكر نزعته البربرية.

ب – ربط جلدون إفريقيا بالإمبراطورية الشرقية، وذلك تمويها نحو الاستقلال التام عن روما، وربما لعداوتة للوزير ستلكون، وربما سعيا منه في النهاية إلى طلب اللقب الإمبراطوري.

ج – أن البربر لم يكونوا يرون في جلدون صاحب مبادئ بربرية، بدليل تحولهم عنه في أول صدمة مباشرة ضد الجيش الروماني.

د – الطبيعة المترومنة الغالبة عليه، وعلى أسرته من إخوته وحتى ربما من أبيه.

هـ - أن كل حركاته كانت نزاعة لبسط نفوذه الشخصي وتقوية سلطته، فتدرجه في قيادة الجيش، ثم اتباعه استراتيجية أسرية ذكية بزواجه بإحدى النبيلات الرومانيات، ومصاهرته للأسرة الإمبراطورية، وتحقيقه ثروة هائلة، وحسن تعامله مع الطائفة الدوناتية في المغرب، وتحقيقه اتصالات مع شيوخ قبائل البربر، يشهد لذلك. فهو في النهاية لم يكن قائدا وطنيا له مشروع دولة بربرية بل كان "وصوليا ممتازا" كما يقول موديران.

❖ ومهما يكن من الأمر؛ فإن فإن حركة جلدون كانت مزيجا مزدوجا من الناقمين على حال الإمبراطورية من رومان مغاربة وبربر مترومنين، ونزعة بربرية نحو تصفية الحسابات القديمة والقريبة مع روما؛ على أن الطائفة الأولى سرعان ما عادت إلى مذهبها الأول وخذلت الثائر المتسلط، ولعلها سبب فشله في مشروعه أيا كانت مقاصده.

اهـ.